

الرد على ابن حزم

كل هذا لا يلزم؛ لأن ظاهر القرآن أمرهم بالسجود له، وهذا السجود تعظيم لله -جل وعلا- لأنه امتثال أمره لا عبادة لآدم ولا سجود إلا لأمر الله -جل وعلا- والأمر إن كان ممثلاً به أمر الله فالمطاع فيه الله. و.. أن ملك الموت يقال له: اقض روح محمد - صلى الله عليه وسلم- وسائر الأنبياء فأى جريمة في الدنيا أعظم من قتل النبي- صلى الله عليه وسلم- ونزع روحه، وقتل الأنبياء والأولياء، لكن ملك الموت مأمور من الله فهو مطيع في ذلك الفعل؛ لأنه إنما فعله بأمر الله. { اسْجُدُوا لِآدَمَ } قال بعض العلماء: إن الملائكة -صلوات الله وسلامه عليهم- لما عظموا أنفسهم، وحقروا بني آدم لما قال لهم الله: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } ثم أثنوا على أنفسهم، وقالوا: { وَتَحَنَّنْ رَبُّكَ نَسِيحٌ } { اسْجُدُوا لِآدَمَ } قال بعض العلماء: { وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا } ثم قال لهم: { أُنَبِّئُوكَ بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ } فعجزوا، وقالوا: { لَا عَلِمْنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } . ثم قال آدم تعال أنت فبين هذا العلم الذي عجزوا عنه وجهلوه فقام آدم وبينها تماماً؛ ولذا قال: { قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ } وأن هذا الذي حقرتم يعلم ما لا تعلمون، وعنده من الخصال ما ليس لديكم. وكلام العلماء في تفضيل الملائكة والآدميين لا يعنينا؛ لأن .. الناس مختلفون فيه، وكل يحتاج لطواهر من كتاب الله، ولا دليل جازم يجب الجزم واليقين به، ولا حاجة تدعو إليه، واختلاف العلماء فيه معروف. وعلى كل حال فالله أظهر فضل آدم هنا؛ حيث علمه ما جهله كل الملائكة، وأمرهم بالسجود، قال بعض العلماء: أمرهم بالسجود لما علم ما لم يعلموا، ويرشد له قوله: { إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا بِذَلِكَ قَالُوا: { يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ } وعلى هذا القول فالملائكة لما أمروا أن يسجدوا لآدم أمر جميع الملائكة كما دل عليه قوله: { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ } واستثنى في جميع السور التي ذكر فيها سجود الملائكة جميعها كالبقرة والأعراف، وطه، والحجر، وص كلها بين فيها سجود الملائكة إلا إبليس. { اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ } أي فسجدوا كلهم أجمعون بدليل قوله: { فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ } إبليس هو الشيطان اللعين عليه لعائن الله. ومنعه من الصرف؛ لأنه اسم أعجمي علم، والعجمة والعلمية بمنعان الصرف. وقال بعض العلماء: أصل إبليس عربي؛ لأنه إفعيل من الإبلاس، والإبلاس القنوط واليأس من رحمة الله حتى يبقى اليأس من شدة يأسه ساكناً لا يحير كلاماً. منه قوله: { فَإِذَا هُمْ مُبْتَلُونَ } ولكنه استدل على قولهم أنه لو كان أعجمياً لأن العلم إذا وضع على إفعيل كان منصرفاً؛ لأنه ليس فيه علتان مانعتان من الصرف. وأجاب من قال هذا بأن إبليس أصله من الإبلاس، وهو القنوط واليأس من رحمة الله، ومنع من الصرف للعلمية وشبه العجمية؛ ولأن هذا اللفظ يشبه الألفاظ العجمية، هكذا يقولون. والأول أظهر. وقوله: { لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ } لم يسجد مع الملائكة. ثم إن الله -جل وعلا- سأله سؤال توبيخ، وتقريع قال: { مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } . قيل هنا وجهان: أحدهما أن { مَا مَنَعَكَ } مضمنة معنى فعل، ولا في بابها ليست زائدة أي ما أوجك وأوجك إلى ألا تسجد؟ ما المانع الذي أوجك إلى ألا تسجد؟ وتضمن الفعل معنى فعل معروف، قال به عامة علماء النحو من البصريين. وأظهر القولين في هذا أن لا هنا جيء بها لتأكيد النفي لأن { مَنَعَكَ } في معنى الجحود والنفي، وإتيان "لا" زائدة في الكلام الذي فيه معنى الجحد مطرد. ذكر الفراء وغيره من علماء العربية أنه مطرد، والدليل على هذا أن خير ما يفسر به القرآن القرآن، وقد قال -تعالى- في هذه القصة بعينها في سورة ص: { يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ } ولم يأت بلفظة "لا"، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، فعلمنا أن لفظة لا لتوكيد النفي. واعلموا أن علماء العربية مطبقون على أن لفظة لا تزداد لتأكيد المعنى وتقويته. أما في الكلام الذي فيه معنى الجحد فلا خلاف بينهم في ذلك. وشواهد في القرآن وأمثله كثيرة فمن أمثله في القرآن: { لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ } والمعنى: ليعلم أهل الكتاب فقد جيء بلا لتوكيد المقام. { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ } فوريك لا يؤمنون. { قَالَ يَا هَازِرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ } أي أن تتبع، { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ } أي والسيئة على أشهر التفسيرين. وقوله جل وعلا: { وَخَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } على أحد القولين. { وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ } على أحد التفسيرين، { فَلْيُتَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا } على أحد التفسيرات التي قدمها في الآية. وهذا كثير في كلام العرب، ومنه في كلام العرب قول أبي النجم في رجزه: فما لا تسخرأ لما رأين الشمس تطفحجرا يعني لا ألومك في أن تسخر أي لا ألومها على سخريتها. وأنشد الفراء لزيادة لا في الكلام الذي فيه معنى الجحد قول الشاعر: ما كان يرضى رسول الله دينهمو والأقربان أبو بكر ولا عمر يعني وعمر ولا في توكيد معنى الجحد. وأنشد الجوهري لزيادة لا في الكلام الذي ليس فيه معنى جحد قول رؤبة بن العجاج أو قول العجاج في بئر لا حور ماها وما شعر من إفكه حتى رأى الصبح جشجر يعني .. ولا زائدة. وأنشد الأصمعي لزيادتها في الكلام الذي ليس فيه معنى الجحد-قول ...: برقا كان وميضه غاب

..... والتحقيق أن لا زائدة، لا عاطفة على جملة محذوفة كما زعمه بعضهم. ومن شواهد ذلك قول الشاعر: تذكرت ليلي فاعترتني صباية وكاد ضمير القلب لا يتقطع أي كاد يتقطع، ولا مزيدة في هذا. وكذلك في قوله: { لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ } لأن المعنى: أقسم بهذا البلد، كما قال: { وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ } على أحد الأوجه المعروفة. ومثل هذا كثير في كلام العرب. .. فقوله على وجهين: أحدهما أن تكون صلة لتوكيد الكلام. ومن أساليب اللغة العربية زيادة لفظ لا لتوكيد الكلام كما بينا الآيات الدالة عليه: { لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ } أي ليعلم أهل الكتاب، { مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ } ما منعك أن تتبعني، { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ } لا تستوي الحسنة والسيئة، إلى غير ما ذكرنا من الآيات، وآيات العربية ذكرنا. وبدل أنها هنا صلة لتوكيد الكلام أن الله حذف .. حيث قال: { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ } . واختار بعض العلماء، وهو اختيار ابن كثير وابن جرير أن الفعل مضمن كما يذهب إليه علماء البصرة وأن لا على بابها. والكلام في معنى ما أوجك وأوجك إلى ألا تسجد؟ وهذا معنى قوله: { مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } أي حين أمرتك، وهذه الآية الكريمة من أدلة العلماء على أن صيغة افعل تأتي للوجوب لأنه قال: { اسْجُدُوا لِآدَمَ } فلما لم يمثل إبليس وبخه على ذلك، وقال: { مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ } فدل على أن صيغة الأمر لا يجوز خلافها. ولما قال نبي الله موسى لأخيه: { أَخِيفِي فِي قَوْمِي وَأُصْلِحْ } بعد ذلك لما ظن أنه خالفه قال: { أَقْصَيْتَ أَهْرِي } فسمي مخالفة صيغة افعل معصية فدل على أنه يرى .. وجوب كما ذكرنا أدلتهم مرارا، وهذا معنى قوله: { فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ } .